

بعض الآباء الكهنة والخُدام والخدمات
من إيبارشية سمالوط
باستراحة دير الأنبا بولا بالبحر الأحمر
يوم الثلاثاء ٢٥ ديسمبر سنة ٢٠١٨ م

الإفخارستيا ذبيحة شكر، وتمجيد، وتقريب للقرابين، للآب، بواسطة ابنه يسوع المسيح

إنَّ الليتورجيات القديمة التي تفرَّعت عنها ليتورجيات متعدِّدة في الكنيسة الجامعة، هي في مضمون صلواتها تخاطب الله الآب، مقدِّمة له الشُّكر، والتَّمجيد، وتقريب القرابين، بواسطة ابنه يسوع المسيح. وتنهج ليتورجية القديس مرقس الرَّسول في الكنيسة القبطية والتي نعرفها باسم ”القُدَّاس الكيرلسي“، هذا النهج. ومثلها ليتورجية القديس يعقوب أخي الرَّب، وهما أقدم ليتورجيتين في الشَّرْق المسيحي كله.

وفي ذلك يقول العلامة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م):

[إنَّ التَّقْدِمة προσφορά ينبغي أن تكون على وجه العموم باسم الله ضابط الكل بواسطة يسوع المسيح، وذلك على قدر ما أن المسيح هو مساوٍ للآب في الإلهية. وبذلك لا تكون هناك تقدمة مزدوجة، بل تقدمة واحدة لله بواسطة الله].

إنَّ القُدَّاس المرقسي في تقليد الكنيسة القبطية، يشرح بكلِّ إبداع وجلاء، هذه العقيدة السَّامية. وهي عقيدة وساطة الرَّب يسوع في تقديم الذبيحة. فمثلاً تقول إحدى الصَّلوات الليتورجية لهذا القُدَّاس:

”قلوسُ ربُّ الصَّبَّاءوت، السَّماء والأرض مملوءتان من مجدك المقدَّس أيها الرَّب إلهنا. بالحقيقة السَّماء والأرض مملوءتان من مجدك المقدَّس من قِبَل ابنك الوحيد ربِّنا وإلهنا ومخلصنا وملكننا كلُّنا يسوع المسيح...“. هنا يتَّضح أنَّ السَّماء والأرض مملوءة من مجد الآب من قِبَل ابنه يسوع المسيح.

وفي موضع سابق من نفس الليتورجية يقول الكاهن:

”أنت هو الذي خلق الإنسان كصورتك وكشبهك. وخلق كلَّ الأشياء بحكمتك، نورك الحقيقي ابنك الوحيد ربِّنا وإلهنا ومخلصنا وملكننا كلُّنا يسوع المسيح، هذا الذي من قِبَله نشكر ونقرِّب لك معه... هذه الذبيحة، وهذه الخدمة غير الدَّموية“.

إذا فالذبيحة مقدِّمة للآب من قِبَل ابنه الوحيد يسوع المسيح ومعه.

ويعلِّق العالم الفرنسي كوكان Coquin بقوله: ”إنَّ إفخارستية مار مرقس تُصر على تفخيم دور الوساطة التي يقوم بها الرَّب يسوع، مؤكِّدة على أنه ينبغي أن يكون موضع إعلان وشهادة... إننا في الواقع لا نقابل مثل هذا الحدق، في أيِّ قُدَّاس شرقي آخر“^(١).

وفي موضع لاحق من ليتورجية مار مرقس الرَّسول (القُدَّاس الكيرلسي)، يقول الكاهن: ”فالآن يا الله الآب ضابط الكل، فيما نحن نبشِّر بموت ابنك الوحيد... يسوع المسيح... ونعترف بقيامته المقدَّسة وصعوده... وجلسه عن يمينك

... ومنتظر ظهوره الثاني ... لبيدين المسكونة بالعدل ... وضعنا أمام مجدك القدوس قرابينك ممّا لك يا أبانا القدوس“.

ونجد هذا الاتجاه الفكري في إبراز وساطة الرب يسوع في الخليقة والخلاص والذبيحة أيضاً، في قدّاس القدّيس باسيلوس القبطي، المستخدم في كنيسة الإسكندرية، والذي يورد النصوص التالية:

+ ”الموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس، هدمته، بالظهور المحيي الذي لابنك الوحيد، ربّنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح“.

+ ”هذا الذي خلقت الكلّ به، ما يرى وما لا يرى“.

+ ”في آخر الأيام، ظهرت لنا نحن الجلوس في الظلمة وظلال الموت، بابنك الوحيد، ربّنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح“.

+ ”ففيما نحن أيضاً نصنع ذكر آلامه المقدّسة ... وقيامته ... وصعوده ... وجلوسه عن يمينك أيها الأب، وظهوره الثاني ... نقرّب لك قرابينك من الذي لك ...“.

هذا الاتجاه العقائدي الذي يُبرز أهمية وساطة الابن في الخليقة وفي تقديم الذبيحة، كما هو واضح في قدّاس مار مرقس الرّسول، والقدّاس المصري للقدّيس باسيلوس، هو في الواقع تقليدٌ عتيقٌ للغاية، نقرأ عنه كثيراً جداً في كتابات الآباء. ومثال لذلك ما يقوله العلامة أوريجانوس:

[... نحن نعبد - بكلّ قوانا - الله الواحد وابنه الوحيد الكلمة - صورة الله - وذلك بالصّلوات والتّضرعات، مقدّمين توسّلاتنا لله خالق العالم بواسطة ابنه الوحيد. نُقدّمها أولاً للابن متضرّعين إليه بصفته كفارة لخطايانا، وكاهناً عظيماً كي يقدّم ذبائحنا واشتياقاتنا وصلواتنا إلى الله العليّ]^(٢).

وقدّاس القدّيس سراييون أسقف تمويس في القرن الرابع الميلادي وصديق البابا أنثاسيوس الرّسولي، وهو قدّاس موجه في خطابه إلى الله الأب بحسب التقليد اللّيتورجي القبطي، يصير فيه استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم الابن الكلمة، بحلول اللّوغوس نفسه على القرابين. فيقول نصّ هذا القدّاس المصري الأصيل:

”يا إله الحق، فليأت كلمتك القدوس على هذا الخبز، لكي يصير الخبز جسد الكلمة. وعلى هذه الكأس، لكي يصير الكأس دم الحق. واجعله دواء الحياة، لكي يتناول منه كلّ المشتركين شفاءً لكلّ مرض ...“^(٣).

وإنّ وساطة الأقنوم الثاني من الثالوث القدوس في تحويل الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه الأقدسين، لازلنا نمارسها حتى اليوم في طقس تقديم الحمل حين يُصلي الكاهن في نهايته، صلاة سرّية للابن، تُسمّى ”صلاة التّقدمة“ أي ”صلاة البروسفورا“، والتي فيها يخاطب الكاهن السيّد الرب يسوع المسيح قائلاً: ”أظهر وجهك على هذا الخبز، وعلى هذه الكأس ... باركهما، قدّسهما، طهرهما وانقلهما، لكي يصير هذا الخبز جسدك المقدّس، والمزيج الذي في هذه الكأس يصير دمك الكريم ...“.

وهنا لا يفوتني أبداً ما قاله العالم اللّيتورجي الألماني الشّهير أنطون بومشتارك A. Baumstark عن طقس تقديم الحمل في الكنيسة القبطية، فيقول: ”إنّ طقس التّقدمة Offertory كان يُصاحَب في الطّقس القبطي القديم باللّحن الطّويل الرّائع الليلويا. أمّا الآن فإنّ طقس تقديم الحمل، يُصاحَب بترتيل المزامير، وهو طقس ذو أصول حديثة متأخرة. وطقس روما أيضاً تصاحب

٢- نفس المرجع.

٣- النّص مترجم عن اليونانية مباشرة من كتاب العالم برايمان:

F.E. Brightman, *The Sacramentary of Serapion of Themuis*, in *The Journal of Theological Studies (JTS)*, vol. I, London, 1900, p. 66. 88-113, 247-277.

فيه المزامير تقديم الحمل، وكذلك التناول من الأسرار المقدسة، وهو طقس ذو أصول حديثة أيضاً^(٤).

وعقيدة وساطة الرب يسوع في تقديم الذبيحة، نجدتها أيضاً متأصلة في تقليد الكنيسة الأنطاكية. ففي الكتاب الثامن من المراسيم الرسولية (التصنيف الثاني من القرن الرابع) نقرأ نصاً ليتورجياً في غاية الأهمية، يُصلِّيه الأسقف فيقول: "لنتوسل من أجل القربان الذي نقدّمه للرب إلهنا، لكي يقبله الله الصالح بتوسط مسيحه، على مذبح السماوي رائحة طيبة"^(٥). (المراسيم الرسولية ٨: ١٣: ٣)

فحين نقرب الذبيحة كل يوم، نعترف كل مرة أننا نفعل ذلك بوساطة المسيح، وأنه بسبب تقديمه لذاته من أجلنا، ولسكناه فينا، هو الذي يقرب أبداً الذبيحة التي قدّمها مرة وإلى دهر الداهرين. نحن نعلم أننا عندما نقدّم حياتنا لله، إنما نقرب المسيح، لأنه حياتنا وحياة العالم.

كما أن الطقس السرياني القديم متمثلاً في ليتورجية المراسيم الرسولية، نعرف منه أنه بعد ليتورجية الكلمة، تجري مراسيم تسريح الموعوظين، والمربوطين برباطات الشياطين، والمستنيرين، والتائبين، بأواشي لكل فئة من هذه الفئات، ثم تبدأ الأواشي من أجل المؤمنين، حيث يعلن الشماس: "لا يقترب غير الأقباء. ويا كل المؤمنين، لنحني الركب، ولنتوسل إلى الله بمسيحه، ولنطلب جميعاً إلى الله بمسيحه" (المراسيم الرسولية ٨: ٥-٩).

وفي الطقس البيزنطي، هناك صلاة تخاطب الابن تقول: "أنت هو المقرب والمقرب، والقابل والموزع، أيها المسيح إلهنا ...". فالمسيح هو الذي يقرب القربان، وهذا القربان هو ذبيحة نفسه التي قربها مرة، والتي ما زال يقربها وحده من أجلنا.

وهو نفس ما نقرأه في صلاة الحجاب في النص اليوناني للقديس الغريغوري القبطي، والذي نشره العالم رنودوت E. Renaudot، وهي غير موجودة في النص القبطي الذي بين أيدينا، حيث نقرأ ما يلي: "... لأنك أنت المقدس والمقدس، المقدم والمقدم، القابل والمقبول، المعطي والموزع".

Σὺ γὰρ εἶ ἀγιαζῶν καὶ ἀγιαζόμενος· προσφέρων τε καὶ προσφερόμενος· ὁ δεχόμενος καὶ δεκτός· ὁ διδούς καὶ διαδιδόμενος·

فالكاهن لا يقدر على إتمام خدمته الليتورجية بكهنوته الذاتي بل بكهنوت المسيح الذي يخدمه. لأنه ليس كهنوتاً آخر غير كهنوت المسيح، هذا هو الكاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق. والكاهن في كنيسة العهد الجديد يبرهن بذلك على عدم انفصاله عن الجماعة قط، بل ويؤكد وحدته معها، لأن المسيح مات من أجل الكنيسة كلها، وليس من أجل نفسه.

وفي جميع الليتورجيات شرقاً وغرباً، تُختتم الصلاة الإفخارستية - وقبل أن تبدأ صلوات القسمة - بتمجيد الآب بابنه أو مع ابنه وروحه القدس. وهذا ما نجدّه في الليتورجية القبطية: "لكي وبهذا كما أيضاً في كل شيء، يتمجد ويتبارك ويرتفع اسمك العظيم، القدس في كل شيء، الكريم والمبارك، مع يسوع المسيح ابنك الحبيب، والروح القدس".

وفي مخطوط الدّير الأبيض بسوهاج (القرن الحادي عشر الميلادي)، وقبل صلاة القسمة، يرد النص التالي: "وامنحنا سلامك كل حين، يسوع المسيح والروح القدس. الآب في الابن، والابن في الآب، مع الروح القدس، في كنيستك المقدسة الواحدة الجامعة الرسولية".

4- Baumstark, A., *op. cit.*, p. 137.

وفي ليتورجية ”التقليد الرسولي“ لهيبوليتس (القرن الثالث الميلادي)، نجد أيضاً صيغة التمجيد هذه: ”لنسبحك ونمجّدك بفنّاك يسوع المسيح، الذي به لك المجد والكرامة مع الرّوح القدس، في الكنيسة المقدّسة، الآن وإلى آباد الدّهور. آمين“.

وهو نفس ما نجد نظيراً له في ليتورجية المراسيم الرسولية، وليتورجية عهد ربّنا، وليتورجية كنيسة القسطنطينية.

وهكذا تُختم الصّلاة الإفخارستية بتمجيد الآب والابن والرّوح القدس، أو بتمجيد الآب بابنه في الرّوح القدس، لأنه في كلّ اللّيتورجيات، وبعد هذا التمجيد يعطي الكاهن السّلام للشّعب. ففي اللّيتورجيا القبطية، وليتورجية أورشليم، يخاطب الكاهن الشّعب بقوله: ”السّلام لكلّ“، أو ”السّلام لجميعكم“. وفي اللّيتورجية السّريانية، يقول الكاهن: ”فلتكن مراحم الله العظيم، ومخلصنا يسوع المسيح مع جميعكم“، أو ”... مع جميعنا“، كما في ليتورجية القسطنطينية. وفي ليتورجية المراسيم الرسولية، يقول الكاهن: ”سلام الله مع جميعكم“. أمّا اللّيتورجية الرّومانية فترجى هذه التّحية إلى حين^(٦).

وهنا يتّضح لنا أنّ قول الكاهن: ”السّلام لكلّ“، يعني أنه يبدأ بعدها صلاة جديدة. فقبلها تكون الصّلاة الإفخارستية قد اكتملت، وبعدها تبدأ صلاة جديدة، هي مقدّمة صلاة القسمة.

ولكن قبل أن تبدأ مقدّمة صلاة القسمة، والتي يقول فيها الكاهن: ”وأيضاً فلنشكر الله الآب...“، يورد النّص اليوناني للقدّاس الباسيلي، تنبيهاً للشّمامسة، يقول فيه: ”انزلوا أيها الشّمامسة – Κατέλθετε, οἱ διάκονοι“. أي انزلوا من الهيكل. لأنه بحسب الطّقس القديم، لا يبقى في الهيكل، سوى الكاهن الخدم، ومعه الشّماس المقدّس، بحسب تعبير القرن السّادس الميلادي^(٧).

وهو نفس ما نقرأ عنه عند ابن كبر (١٣٢٤م) في القرن الرابع عشر الميلادي، موضحاً أنّ الشّمامسة ينزلون من الهيكل قبل مقدّمة صلاة القسمة. فبعد أن يذكر مرد: ”كما كان...“، يقول: ”... ثمّ البركة على الجسد والدّم، ويقسم الجسد المقدّس، وينزل الشّمامسة من الهيكل. وبعد ذلك يُسلم القس على الشّعب ويردّون عليه، ويُقال أبانا...“.

هذه لمحة عن مضمون صلوات الإفخارستيا في أصولها الأولى، فهل من عودة إلى الأصول؟

٦ – البطريك إغناطيوس أفرام الثاني، مرجع سابق، ص ٣٠٦
٧ – انظر القانون (٢٣:١٩) من قوانين هيبوليتس القبطية.